

الرأفة والرحمة في دعوة الأنبياء



«المتأمل في دعوة الأنبياء الناس إلى التوحيد يرى أن البُعد الحقيقي لهذه الدعوة هو البُعد التربوي والتعليمي والتوجيهي ومحاولة بيان فساد الآراء أو القناعات التي يعتقدونها وإرشادهم برفقٍ ولينٍ إلى صلاحهم وسعادتهم بدون إساءةٍ أو أذىٍ أو إهانةٍ أو أي شكلٍ من أشكالٍ عدم احترام إنسانيتهم بل كان دأب الأنبياء تزكية نفوس الناس وتصفية قلوبهم وأرواحهم وإصلاح سرائرهم وتنقية معتقداتهم؛ لأنَّ الإنسان إذا صُلِحَ باطنه صُلِحَ ظاهره وسلوكه، وإذا سلِمَت عقائده من الخطأ والضلالة سلِمَ الناس منه.

العنف منهج حكّام الجور:

يبين القرآن الكريم منهج العنف عند فرعون سواء في مواجهته للنبي موسى (ع) حيث قال تعالى: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَاتِلُ أِبْنَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (الأعراف/ 127). أو منهجيته في التعامل مع الناس قبل دعوة موسى (ع)، قال تعالى: (وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءًا الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ وَمَوَدَّةَ وَايَاتِكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ كُفْرًا وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة/ 49).

قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَيَّ الطَّيْنِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (القصص/ 38).

وسرعان ما يُسارع الظالم إلى القتل مستخدماً العنف بأبشع صورته، قال تعالى: (وَآتَلُّ

عَلَيْهِمْ زَيْتًا ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ۗ إِذْ قَرَّبْنَا قُورُبًا زَبَانًا فَتَتَّقِبِلْ مِنْهُ
أَحَدُهُمَا وَلَمْ يُتَّقِبِلْ مِنَ الْآخَرِ ۗ قَالَ لَأُقْتُلَنَّكَ ۗ قَالَ إِنَّمَا يَتَّقِبِلْ
اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (المائدة/ 27).

وهذا ما فعله قوم لوط مع نبيهم حيث عمدوا إلى نبيهم وجماعته وإخراجهم من القرية، قال تعالى:
(وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ ۗ مِنْ قَرَّبَ يَتَّقِبْ مِنْهُمْ
أُنَاسٌ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) (الأعراف/ 82).

وأما مع نبي □ شعيب فهددوه بالرجم بدون رافة أو مراعاة لأي اعتبار، قال تعالى: (قَالُوا
يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقْتَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَا
رَهْطًا لَنَرَجِمَنَّكَ وَنَمَازِنَا عَلَيُنَا بَعْزِينَ) (هود/ 91).

الرفق واللين منهج الأديان:

قال تعالى: (لَئِن سَطَّتْ إِلَيَّ يَدُكَ لَنَتَّقُتْ لِنَنِي مَا أَنَا بِبِئْسَ سِطٍ يَدِي
إِلَيْكَ لَأُقْتُلَنَّكَ ۗ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۗ رَبَّ الْعَالَمِينَ) (المائدة/ 28)، وما أروعها من
مواجهة بين اثنين أحدهما يخاف □ والآخر لا يخافه، فالتهديد بالقتل يواجهه بالنهر والدعوة إلى
مخافة □ وعدم الوقوع في المعصية.

وهذا نبي □ لوط الذي كان قومه يرتكبون أعظم الفاحشة، ومع ذلك لم يعاملهم بالعنف والقسوة،
ولم يسلب في وجههم سيف الدين، بل راح يعظهم ويقدم لهم دليلاً ليس دينياً، وإنما أمرٌ عقلي
مفاده أن هذا الفعل لم يسبقكم إليه أحد من قبل، فلو كان فيه جهة حسنة لفعله من سبقكم من الأمم،
قال تعالى: (وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ
أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) (الأعراف/ 80).

قال تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِبَقِيَّةٍ يَأْتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
مِنْهُمْ مِّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِبَدِينَارٍ لَا يَأْتِيهِ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِمْ
قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران/ 75).

ونقرأ في دعوة نوح (ع) الحكمة والأسلوب الهادئ فهو يدعو قومه إنطلاقاً من خوفه عليهم وعلى
آخرتهم، فهو المبلغ لهم والناصح الأمين كما يعبر كتاب □ وليس الحاكم المسلط عليهم، قال تعالى:
(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ
قَوْمِهِ إِنَّمَا لَنُرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالٌّ وَلَا كَاذِبٌ
رَّسُولٌ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ
مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف/ 62-59).

وهذه دعوة بقية الأنبياء من صالح (ع) إلى هود (ع) إلى إبراهيم (ع) إلى غيرهم من أنبياء □
الذين ذكرهم القرآن الكريم ولا ترى في دعوتهم إلا الوعظ والتذكير والدعوة إلى التامل ومراجعة
الذات وبيان المعارف الإلهية والنعم التي أنعمها □ على بني البشر وغيرها من الأساليب التي لا تنطوي
إلا على المحبة والرفق والخوف على الآخرين والنصيحة بدون عنف أو قسوة، قال تعالى: (وَإِلَى
ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ
قَدْ جَاءَ تَكْوِيمٌ بَيِّنَةٌ مِنَ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا
تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ *
وَإِذْ كُورُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ
مِنْ سُھُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَآذِكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا
تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (الأعراف/ 74-73).

قال تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ قَدْ جَاءَ تَكْوِيمٌ بَيِّنَةٌ مِنَ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ

وفي حوار نبي ﷺ إبراهيم مع أبيه ترى عظمة الرحمة والقلب الرؤوف والدعوة اللينة، قال تعالى: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِيكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَتَّبِعْهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْ رَبِّي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ - وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَ لَهُمْ وَمَا يَعْجُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَيِّنَالَهُ عِسْخَاقٌ وَيَعْفُوبٌ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (مریم/ 42-49).

وَأَمَّا فِي مَوَاجَهةِ مُوسَى (ع) لفرعون، ورغم التسلط والاستكبار والعتو الذي كان يمارسه فرعون ضد شعبه نرى أن ﷺ تعالى يأمر نبيه بالتعامل معه بالحسنى، قال تعالى: (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنفِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيًّا لَعَلَّه يُتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (طه/ 42-44).

وفي الخطاب الإلهي لبني إسرائيل نقراً قوله تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْزَاهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِن كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعُدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ) (المائدة/ 32).